التفسير القرآني في الماضي والحاضر

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾

عبد الرحمٰن السالمي

جاء تحديدُ القرآن الكريم لبنيته بأنه مكوَّنٌ من آياتٍ محكماتٍ وأُخَر متشابهات؛ ليشير إلى سُبُلٍ ومناهجَ مختلفةٍ ينبغي استخدامُها في فهم النصّ وإدراكه. فالآياتُ المحكمات هي التي يمكن إدراكُها بادئَ الرأْي، وأمّا المتشابهات فهي تلك التي تحتاج إلى أساليب أكثر تعقيداً وتركيباً للوصول إلى فهمها. وقد لاحظ القرآن أن «مرضى القلوب»؛ أي ذوي النوايا والمقاصد السيئة يؤثرون اللجوء إلى تلك المتشابهات لغرضين: **إحداث انقسام** في صفوف الناس من طريق الإيحاء بتناقض المتشابه مع المحكم، **والتلاعُب** بمعاني الآيات من طريق تأويلها. والتأويلُ هنا ليس هو التماس المعاني الثواني التي يتيحها المجاز وما هو في حكمه؛ بل المقصودُ به في هذا السياق تحويلُ بعض الآيات عن معانيها المقصودة لاحتمال ظاهرها أو ظواهرها أكثر من معنى. وقد اختلف المُفسِّرون في معنى ذكر «الراسخين في العلم» في مواجهة «الذين في قلوبهم مرض»؛ هل المقصود أنّ

الراسخين في العلم يكتفون بتفسير وتطبيق المحكمات والتسليم، دونما خصوص في تفصيل المتشابهات، أم المقصود أنّ الراسخين الأتقياء الورِعين هم الذي يتمكنون بتوفيق اللّه ﷻ وصفاء النية من فهم المتشابه بردِّه إلى المحكم؟

كانت مسألةُ المحكم والمتشابه إذن بين أول قضايا التفسير. وقد أحالها بعضهم على عالم الغيب والاعتقاد به (المتشابه)، بينما المحكم هو من عالم الشهادة. وهذا في حين ذهب آخرون، وهم الأكثرون ـ إلى أنّ المتشابه يتعلق باللغة والتركيب، ومن ثم فإنّ القدرة على الفهم تكون تابعةً لإتقان أساليب العربية ومفرداتها، مع خلوص النية، وتقصد الفهم والاتِّباع.

وعلى أيِّ حالٍ فقد كان (الغريبُ) اللُّغويُّ واللساني هو الذي ظهر البحثُ والتأليفُ فيه منذ مطالع القرن الثاني الهجري. ومنذ البداية كان الغريبُ نوعين: غريبٌ على الأسماع والأفهام؛ لأنه ليس من أُصولٍ عربية. وغريبٌ لوجوده في لغة قريش دون غيرها، وفي كلا النوعين ـ وفي النوع الآخر المُسمَّى المُشْكل لفظاً أو معنًى ـ ظهرت تفاسير موجزةٌ لإقراء القرآن وإفهامه عندما كانت قراءات القرآن تُدوَّن وتُدرَّسُ وتُحفظ.

إنما ـ وفي مُوازاة هذا النوع من التأليف، والذي يتتبع المفردات الغريبة والإشكالية في حقيقتها ومجازها وغريبها ومُشْكلها ـ ظهر نوعٌ آخَرُ من التأليف في القرآن، سُمِّي (الوجوه والنظائر) أو (الأشباه والنظائر). وقد كان يُعنى به تتبع المفردات التي تتكرر في القرآن بمعانٍ مختلفة تُظهرها السياقات، أو يمكن فهمُها المختلف في كل موطن بالاسترشاد بالسياق، وإلى جانب النظائر ـ التي تعني أشياء مختلفة في مواطن تكرار المفرد ـ جرى الاهتمام بالمفردات المختلفة التي تعني معنًى واحداً أو معاني متقاربة في المواطن المتعددة بالكتاب الكريم.

وإلى جانب تفاسير الغريب والاشباه والنظائر، ظهرت تفاسير الخمسمائة آية، أو تفاسير الأحكام الفقهية، ولا ندري مَن الذي عمل هذا

الإحصاء للآيات التي تتضمن أحكاماً فقهية؛ لكنّ التفاسير الفقهية هذه انتشرت بسرعةٍ في القرن الثاني الهجري أيضاً. وبمقتضى هذا المنزع لا يقوم المفسِّر بكتابة أو رواية تفسيرٍ شاملٍ للقرآن؛ بل يتتبع في كل سورةٍ الآياتِ التي تتضمن في نظره أحكاماً فقهية. وكان جوزف شاخت قد التمس مصادر الأحكام في القرآن في كتب المسائل الفقهية الأولى، والتي لا تتضمن آياتٍ وأحاديث كثيرة، ولذلك فقد اعتقد أنّ القرآن والسنة لم يلعبا دوراً كبيراً في نشوء المذاهب الفقهية، وبخاصةٍ مذهبا أبي حنيفة ومالك بن أنَس! لكنّ الواقع أنّ المصادر القرآنية للفِقه ينبغي التماسُها في القرنين الثاني والثالث في تفاسير الخمسمائة آية.

وتأتي ثالثاً أو رابعاً في مرحلة النشوء هذه التفاسير العقدية. وهي أيضاً ليست تفاسير شاملةً؛ بل تهتمُّ بالجوانب العقدية في الذات والصفات والأسماء والأحكام والقضاء والقدر، وقد اختصَّ بها المتكلمون من شتى المذاهب والفِرَق، واختلفوا في مقتضياتها اختلافاً كثيراً.

وعلى مشارف القرن الثالث الهجري تظهر أخيراً كتب التفسير الشامل، وهي المعروفة بالتفسير بالمأثور، فلكل آيةٍ سبب نزول، وكل آيةٍ يُستشهدُ لمعناها بأثرٍ منسوبٍ للنبي ﷺ أو لأحد الصحابة أو التابعين. وبذلك فقد كان حصيلةُ تطورات قرنٍ كاملٍ من الانشغال بالقرآن ظهورَ «تقليد» تفسيري أو جذْع لهذا التقليد، وقد اتّسع هذا «التقليد» الذي يقوم على الترابط الوثيق للقرآن كلِّه، اتّسع للتوجهات العقلية والصوفية والفقهية والعقدية... إلخ، وسواء أكان التفسير المعيَّن مجلداً واحداً أو عشرات المجلَّدات. لقد ظلّت بعض أنواع التفسير السالفة الذكر موجودةً في العصور اللاحقة؛ لكنها صارت فروعاً على التيار الرئيس الذي صار عمادَ التقليد لدى سائر المفسِّرين لحوالى ألف عام.

لقد واجه التقليد الإسلامي بعامةٍ ـ وبخاصةٍ جوانبه الفقهية والعقدية والآثارية ـ تحدياتٍ جمةً في الأزمنة الحديثة. لكنّ تقاليد التفسير القرآني

لم تتعرض للتحديات ذاتهـا. بَيْدَ أنّ التحديات أو المشـكلات ـ إذا جاز الحديث عنها في السـياق القرآنـي ـ فإنها تعلقت جميعـاً برؤية العالَم. والمعنيُّ برؤية العالَم هنا: التفسير أو القراءة الجديدة للعالم، وكذا تأمُّله من وجهة نظر العلوم الحديثة، وسُنَن تطور المجتمعات الإنسانية. وقد كان هذان الأمران بالفعل همـا اللذين دخلا على التفاسـير الجديدة للقرآن. فكانت هناك تفاسـير جديدة حاولت قراءة التطورات العلمية الحديثة في ضوء القرآن. وبسبب اللغة القرآنية الساحرة والشاسعة؛ فإنّ كثيرين أَقبلوا على قراءة مجريات العالم الحديث بعيون القرآن، وعلى مدى أقلّ من مائة عامٍ سادت رُؤًى تتصل بالإعجاز العلمي للقرآن، وقد تعرض هذا النوع من «التفسـير العلمي» لنقدٍ مبدئيٍّ كبيـر؛ لكنه صمد وما يـزال، وما تزال الكتاباتُ تتكاثر فيه في جانب العلوم البحتة والأُخرى التطبيقية، والبحوث الفسيولوجية والجيولوجية والنفسية والاقتصادية. وجاءت بحوث واستشرافاتُ السُّـنَن الاجتماعية من خلال عوالم القرآن؛ لتحقق نجاحاً أكبر من بحوث الإعجاز العلمي، دونما اعتراضٍ من أحد.

بَيْدَ أنّ الأصول التقليدية للتفسـير القرآني تعرضت لتحدياتٍ أكبر، عندما ظهرت التيارات والحركات المتشـددة، والقائلـة بالنظام الإلهي الكامل في المجتمعـات والدول. لقد ظهرت هـذه الحزبيات ليس نتيجة العـودة للقرآن رغم ادعائهـا ذلك؛ بل إنها تكونت ثـم حاولت التأصيل لتوجهاتهـا في الكتاب والسـنة. والقـرآن الكريم ـ كمـا ورد عن بعض الصحابة ـ حمّـال أَوجُه. ومع ذلك فـإنّ لغة القرآن الشاسـعة لا يمكن تضييقُها بحيث تتناظرُ أو تدلُّ على توجهات المتشـددين. وهكذا ـ ورغم ظهور تفاسير للقرآن تحملُ عنوان هذا التوجُّه الحزبي أو ذاك ـ فإنّ النصَّ القرآني ظلَّ عصيّاً على الاحتكار لصالح فريقٍ أو جهة. وكما تقول القاعدة الفقهية إنه (إذا ضاق الأَمْرُ اتّسع)؛ فإنّ التجديد في مجال تفسير القرآن مضى بثلاثة اتجاهـات: التأويل الأخلاقـي، والتأويل الخـاصّ بمقاصد الشريعة، والتأويل الماضي باتجاه التعارُف مع العالم، وقد ذهب محمد

إقبال وفضل الرحمن ومحمد عبد الله دراز وآخرون إلى أنّ هذه الاتجاهات هي مداخلُ لرؤيةٍ قرآنيةٍ واحدة.

لقد اعتاد العلماء المسلمون في أزمنة الاجتهاد والتجديد الانطلاق (بعد المدخل الفقهي والآخر العقدي) إلى القرآن الكريم لرؤية العالم من جديدٍ في ضوئه، لقد صنع ذلك من قبل فخر الدين الرازي والألوسي، وصنعه من بعد محمد عبده، والقطب أطفيش، ونور الدين السالمي، والمراغي، والطاهر بن عاشور، وشلتوت، والطباطبائي. ووسط عواصف التغيير في العالم المعاصر يجد مسلمون كثيرون اليوم ضرورةً للانطلاق من القرآن وإليه.

إنّ هذا العدد من مجلة **التفاهم** يعالج بالفعل من خلال نخبةٍ من المتخصصين هذه الإشكالية: إشكالية الانطلاق من الكون المسطور إلى الكون المنظور والعكس في جدليةٍ خصبة. لقد كتب الزملاء في أصول وتقاليد وقواعد التفسير الكلاسيكي للقرآن، وكتب آخرون في الرؤى الجديدة والأفهام الجديدة للقرآن، وحاول فريقٌ ثالثٌ القيام باستشراف في الإمكانات والممكنات التي يتيحها القرآن للأُمة والعالم وبني الإنسان: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ...﴾ [الحج: 78].